ثغويين من عصر العادل طومان باى "صانع السلاطين"

دكتور محمد محمد أمين
كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

المجلة التاريخية المصرية ـ المجلة التاريخية المصرية ـ المجلة التاريخية المصرية ـ المجلة التاريخية المصرية

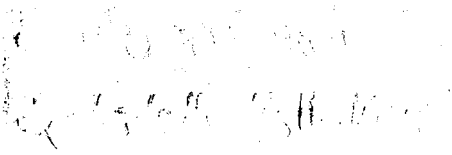

تمهيـــد :

ترجع الوثيقة التى نقدمها اليوم للدراســـة والنشر (١) الى عصر السلطان العادل طومان باى ، والذى يمكن أن نطلق عليه لقب « صانع السلاطين » ، ذلك أن طومان باى رفع اثنين من كبار الامراء الى عرش سلطنة المماليك قبل أن يلى هو نفسه العرش .

والفترة التاريخية التى ترجع اليها هذه الوثيقة ، انما تمثل فترة اضطراب وقلق شديدين فى أواخر عصر سلطنة المماليك ، والوثيقة رغـم صغر حجمها فانها تلقى بعض الضوء على العلاقات التى سادت بين كبار

فى صيف عام ١٩٧٨ اكتشفت بأرشيف وزارة الأوقاف بالقاهرة ٩٧ وثيقة ترجع الى عصر سلاطين المماليك ، لم تسبق دراستها أو الاشارة اليها ، فقمت بفهرستها وعمل بطاقات لبياناتها ـ لتحفظ بالوزارة ـ وذلك لاول مرة ، ولاحظت ان من بين هذه الوثائق المكتشفة ثلاثة وثائق لها أهمية خاصة من حيث الموضوع الذى تتناوله الوثيقة ، فكل منها هى الوحيدة التى وصلتنا من حيث موضوعهـا من عصر ســـلاطين المماليك ، ومن هذه الوثائق وثيقة « التفويض » هذه ، وهى تتعلق بتفويض خاص ، وتختلف عن التفاويض التى تصدر عن ديوان الانشاء والتى ورد ذكرها فى كتب المصطح .

الأمراء المتنافسين على العرش ، وما يمكن ان نطلق عليه « صراع من أجل السلطة » ، فالوثيقة تدور بين أربعة أشـــخاص تولى ثلاثة منهم عرش سلطنة المماليك ، والوثيقة توضح لنا جانبا من نوعية العلاقات بين هؤلاء الأمراء ، كما أنها تمثل نوعا من تقسيم الغنائم بين المشتركين فى الصراع بعد أن تم توزيع المناصب الكبرى عليهم ، وهذا ما توضحه بجلاء الخلفية التاريخية لهذه الوثيقة .

وفى المجال الوثائقى ، فان الوثيقة هى الوحيدة التى وصلتنا فى موضوعها من عصر سلاطين المماليك ، فهى الوثيقة المفردة الوحيدة التى وصلتنا من هذا العصر ، وتتناول موضوع « تفويض » وهى وثيقة خاصة، ولم تسبق دراستها أو نشرها ، أو حتى مجرد الاشارة اليها . (١)

طومان باى « صانع السلاطين » :

شهدت الفترة التى أعقبت وفاة السلطان قايتباى (٢) ، وحتى تولية السلطان الأشرف قانصوه الغورى (٣) ، صراعا شديدا بين كبار الأمراء من أجل الوصول الى عرش سلطنة المماليك ، حتى أنه ولى الحكم فى هذه الفترة القصيرة ، والتى لم تتجاوز الخمس سنوات خمسة سلاطين ، تولى أحدهم وهو محمد بن قايتباى السلطنة مرتين ، وانتهى الأمر بقتله على يد الأمراء (٤)، كما تولى أحدهم وهو قانصوه خمسمائة عرش السلطنة

---

(١) أنظر محمد محمد أمين : فهرست وثائق القاهرة ص ٢٢٧ مسلسل رقم ٦٠٩ .

(٢) اعتلى الأشرف قايتباى عرش سلطنة المماليك فى ســـنة ٨٧٢ هـ / ١٣٦٧ م وحتى وفاته سنة ٩٠١ هـ / ١٤٩٦ م ـ السخاوى : الضوء جـ ٦ ص ص ٢٠١ ـ ٢١١ ترجمة رقم ٦٩٧ ، ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٨ ص ص ٦ ـ ٩ ، الغزى : الكواكب السائرة جـ ١ ص ٢٩٧ وما بعدها .

(٣) اعتلى الأشرف قانصوه الغورى عرش سلطنة المماليك فى سنة ٩٠٦ هـ/١٥٠١ م ، وحتى وفاته فى مرج دابق سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م . ـ ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ٤ ، جـ ٥ ص ٧٠ ، ابن العماد : مصدر سابق جـ ٨ ص ١١٣ ، وللدراســة التفصيلية انظر د . عبد العظيم حامد خطاب : قانصوه الغورى ونهاية الدولة المملوكية (رسالة دكتوراه لم تنشر بكلية الآداب جامعة عين شمس) .

(٤) اعتلى محمد بن قايتباى عرش سلطنة المماليك فى سنة ٩٠١ هـ / ١٤٩٦ م ، ثم خلعه الامراء وولوا قانصوه خمسمائة مدة ثلاثة أيام ، ثم أعادوا محمد بن قايتباى الى العرش حتى قتل على يد الامراء فى سنة ٩٠٤ هـ / ١٤٩٨ م ، ابن العماد : مصدر سابق جـ ٨ ص ٢٢ ، ٢٣ ، ابن اياس : مصدر سابق جـ ٣ صفحات ٣٣٢ ، ٣٤٢ ، ٣٤٥ ، ٤٠١ .

مدة ثلاثة أيام فقط ، ثم خلعه الأمراء (١) .

وفى خلال هذه الفترة المضطربة ظهرت شخصية المملوك « طومان باى » ، والذى ترقى فى الخدم المملوكية خلال هذه الفترة القصيرة ، بصورة ليس لها مثيل فى عصر سلاطين المماليك ، فنجح خلال فترة قياسية أن يترقى من أمير عشرة (٢) فى شعبان سنة ٩٠٢ هـ/١٤٩٧ م وأن يصل الى السلطنة فى جمادى الآخرة سنة ٩٠٦ هـ/١٥٠٦ م ٢ ، بل كان هو الذى رفع اثنين من كبار الأمراء الى منصب السلطنة .

وحتى يمكننا أن ندرك الفترة القياسية التى ترقى خلالها طومان باى ، نقارن فى الجدول الآتى بين الفترات الزمنية التى ترقى خلالها أواخر سلاطين المماليك فى الخدم المملوكية منذ أن اعتقوا حتى تولوا السلطنة ، بعد أن استبعدنا محمد بن قايتباى باعتباره ابن السلطان قايتباى ، وليس مملوكا ، والظاهر قانصوه الأشرفى باعتباره خال السلطان محمد بن قايتباى ، وكان لهذه العلاقة أثرها فى سرعة ترقيه ووصوله الى السلطنة (٤) .

---

(١) السخاوى : مصدر سابق ج ٦ ص ١٩٩ ترجمة رقم ٦٨٣ ، ابن اياس : مصدر سابق ج ٣ ص ٢٤٢ ، ٢٤٥ ، ونلاحظ انه نظرا لقصر فترة تولية قانصوه خمسمائة لم يعده ابن اياس ضمن سلاطين المماليك .

(٢) أمير عشره : من أصغر المراتب الحربية لامراء المماليك ، وكان فى خدمة صاحبها عشرة مماليك ، ومن هذه الطبقة صغار الولاة ونحوهم مثل والى الفسطاط وشاد الدواوين ، ووظائف الدوادار الثالث ، وأمير آخور الثالث .... الخ القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ١٥ ـ ٢٣ ـ ٢٧ ـ ٢٨ ـ ابن شاهين : زبدة كشف المماليك ص ١١٥ ـ المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢١٥ .

(٣) ابن اياس : مصدر سابق ج ٣ ص ٣٥٨ ـ ٤٦٣ .

(٤) ناصر قانصوه الاشرفى ابن أخته محمد قايتباى ، ولذا قرره أمير طبلخانات شاد الشرابخاناه دفعة واحدة ، ولذا لا يمكن وضعه فى المقارنة ـ ابن اياس : مصدر سابق ج ٣ ص ٤٠٤ ، ٤٠٦ .

السلطان / الوظيفة	قايتباى	جان بلاط	طومان باى العادل	قانصوه الغورى	طومان باى الأشرف
تاريخ العتق	قبل ٧٥٧ هـ	قبل ٨٩٠ هـ	قبل ٨٩٨ هـ	قبل ٨٨٦ هـ	٩٠١ هـ
أمير عشرة	٨٦٢	٨٩٢	٩٠٢	٨٨٩	٩٠٦
أمير طبلخاناه	٨٦٥	٨٩٤	٩٠٣	ـــــ ؟	٩١٠
أمير مائة مقدم ألف	٨٧٢	٨٩٧	٩٠٤	٩٠٢	٩١٣
سلطان	٨٧٢	ذو الحجة	جمادى الآخرة	شوال	رمضان
		٩٠٥	٩٠٦	٩٠٦	٩٢٢
المدة من أمير عشرة حتى الوصول الى السلطنة	١٠ سنوات تقريبا	١٣ سنة تقريبا	٤ سنوات تقريبا	١٧ سنة تقريبا	١٦ سنة تقريبا

المصدر :

السخاوى : مصدر سابق حـ ٣ ص ٦٢ ، حـ ٦ ص ٢٠١ ، ابن اياس مصدر سابق حـ ٣ صفحات ٣ ، ٤ ، ٢٨٨ ، ٣٥٨ ، ٤٣٨ ، ٤٦٣ ، حـ ٤ صفحات ٤ ، ٧٨ ، ١٢٠ ، حـ ٥ ص ١٠٢ ، ١٠٤ .

ص
السلطان طومان باى الأشرف
الغورى
طومان باى العادل
جان بلاط
قايتباى
عدد السنوات التى قضاها كل سلطان من تولية امور عشيرة حتى وصوله الى السلطنة
٠ ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ١٠ ١١ ١٢ ١٣ ١٤ ١٥ ١٦ ١٧ ١٨

ويتضح من الجدول والرسم البيانى ، سرعة ترقى طومان باى فى الخدم المملوكية بصورة غير عادية ، ولم يسبق لها مثيل ، فهو الوحيد بين خمسة سلاطين الذى وصل الى عرش السلطنة بعد أن رقى الى امرة عشرة بأربع سنوات فقط ، مما يدل على مدى الاضطراب الذى ساد سلطنة المماليك فى أواخر أيامها (١) • وحتى أنه يمكن القول أن هذه الفترة التى أعقبت وفاة السلطان قايتباى وحتى تولية السلطان الغورى عرش السلطنة كانت بداية النهاية بالنسبة لسلطنة المماليك ، وبخاصة أن هذه الاضطرابات الداخلية جاءت فى نفس الوقت الذى تمكن فيه البرتغاليون من الدوران حول أفريقيا ، والوصول الى الهند ، وبداية سيطرتهم على التجارة الشرقية ، وبالتالى بداية حرمان مصر من أهم مواردها المالية فى ذلك العصر (٢) •

ونجح أحد المماليك ، وهو طومان باى ، فى استغلال هذه الأوضاع ، نجح الى حد أنه استطاع أن يرفع اثنين من كبار الأمراء الى عرش السلطنة ثم يلى هو بعد ذلك العرش ، كل ذلك فى فترة وجيزة لم تتعد الأربع سنوات •

وطومان باى من المماليك الجراكسة ، اشتراه قانصوه اليحياوى ، نائب الشام (٣) ، وقدمه مع جملة من المماليك الى السلطان قايتباى ، ومن المرجح أن ذلك كان فى نيابة قانصوه اليحياوى الثانية لدمشق ، أى حوالى سنة ٨٩٣هـ/١٤٨٨ م ، وأقام طومان باى بطباق المماليك حتى أعتقه

---

(١) يرجع السبب الرئيسى فى اضطراب الاحوال الداخلية فى سلطنة المماليك الى ثورات الجلبان ومطالبهم ، والجلبان مماليك جرى شراؤهم كبارا ، ولم يقبضوا فى الطباق الا فترة قصيرة ، فكانوا عنصر اضطراب وفساد • للدراسة التفصيلية انظر د . عبد العظيم خطاب : مرجع سابق ص ص ٤ ــ ٧ .

(٢) وصل فاسكودى جاما Vascode Gama الى قاليقوط Calicut فى شوال ٩٠٣ هـ / مايو ١٤٩٨ ــ انظر جيان : وثائق تاريخية ص ٢٠٩ ، جورج فاضلو حورانى: العرب والملاحة فى المحيط الهندى ص ٢٣٧ ، محمد عبد العال أحمد : اضواء جديدة على ملاح فاسكودى جاما ــ مجلة الدراسات الافريقية ١٩٧٦ ــ ص ١٥٧ .

(٣) تولى قانصوه اليحياوى نيابة دمشق مرتين فى عهد السلطان قايتباى الأولى من ربيع الأول ٨٨٤ الى رجب ٨٨٦ هـ ، والثانية من ذى الحجة ٨٩٢ هـ حتى وفاته فى شوال ٩٠٢ هـ ، ابن طولون : اعلام الدرى ص ٦٨ ــ ٦٩ ــ ٧٤ ــ ٧٥ ــ مفاكهة الخلان جـ ١ ص ١٧٦ ، السخاوى : مصدر سابق جـ ٩ ص ١٩٦ .

السلطان قايتباى وأخرج له خيلا وقماشا ، وصار من جملة المماليك السلطانية جمدارا (١) ٠

أصبح طومان باى « أمير عشرة » فى عهد السلطان الناصر محمد ابن قايتباى ، فى رجب ٩٠٢ هـ/مارس ١٤٩٧ م ، ثم ترقى طومان باى الى « أمير طبلخاناه » وتقرر فى الدوادارية الثانية فى المحرم ٩٠٣هـ/سبتمبر ١٤٩٧ م (٢) ٠

ولم يلبث أن تغير طومان باى على السلطان محمد بن قايتباى ، رغم أن الناصر محمد هو الذى أمره ورقاه ، ويرجع ذلك الى أنه فى المحرم سنة ٩٠٤ هـ/سبتمبر ١٤٩٨ م ، وأثناء لعب السلطان بالكرة فى حوش القلعة مع الأفراد ، صار طومان باى يقتحم على أخذ الكرة من السلطان فحنق منه السلطان ، وضربه على ظهره بالصولنجان أكثر من مرة ، فكان ذلك من أسباب حنق طومان باى على السلطان ، حتى أن ابن اياس يرى أن ذلك كان من أسباب قتل طومان باى للسلطان (٣) ٠

ويبدو أن هذه الحادثة هى التى حملت السلطان على أن يأمر فى ربيع الأول ٩٠٤ هـ/نوفمبر ١٤٩٨ م ، طومان باى ، وأنصباى وغيرهما بأن يكتبوا وصية ويتوجهوا الى مكة عن طريق البحر ، فرفضوا تنفيذ أمر السلطان ، وأضمروا له السوء (٤) ، وكان بداية التقارب بين كل من طومان باى وأنصباى ٠

وبعد أيام قليلة صدر امر السلطان بخروج طومان باى على رأس تجريدة الى البحيرة للقضاء على ثورات العربان ٠ فخرج طومان باى الى بر الجيزة استعدادا للرحيل ، وفى اليوم التالى خرج السلطان الى الجيزة للهو ، وفى أثناء عودة السلطان مر على الطالبية حيث خيام طومان باى فأسرع طومان باى الى انتهاز الفرصة ، وعزم على السلطان أن ينزل عنده ولما رفض السلطان هذه الدعوة ، خرج طومان باى الى السلطان بجفنة

---

(١) يختار السلطان عددا من المماليك بعد تخرجهم من الطباق ، ويختص بهم لصفات بهم ، فيتدرجون قبل تأميرهم فى وظائف الجمدارية والسلحدارية .. الخ أنظر : ابن شاهين : مصدر سابق ص ١١٦ ، السيد الباز : المماليك ص ١٣٤ ، والجمدار : كلمة فارسية من شقين معناها ممسك الثياب ، والجمدار هو الموظف الذى يتصدى لالباس السلطان ثيابه ـ القلقشندى : مصدر سابق جـ ٥ ص ٤٥٩ ٠

(٢) ابن اياس : مصدر سابق جـ ٣ ص ٣٧٧ ، ٣٩١ ٠

(٣) ابن اياس : مصدر سابق جـ ٣ ص ٣٩٧)

(٤) نفس المصدر جـ ٣ ص ٣٩٩ ٠

فيها لبن فاخر ، فوقف السلطان ـ وهو راكب على فرسه ـ ليشرب من اللبن ، بينما أمسك طومان باى بلجام فرس السلطان ، وفى تلك الأثناء خرج كمين من الخيام من نحو خمسين مملوكا ، وقتلوا السلطان ، ومن معه من أولاد عمه (١) .

تم الاتفاق بين الأمراء على سلطنة قانصوه خال السلطان محمد ابن قايتباى ، وكان طومان باى ـ الدوادار قانصوه طومان باى فى الدوادارية الكبرى ـ بعد ان رقاه الى رتبة أمير مائة مقدم ألف ، وبعد أيام قليلة أضاف السلطان الى طومان باى الوزارة والاستادارية (٢) .

وهكذا مهد طومان باى للسلطان قانصوه وأجلسه على العرش ، وبذلك رفع طومان باى أول سلطان الى عرش السلطنة المملوكية .

نال طومان باى الحظوة عند السلطان قانصوه ، وبخاصة بعد انتصار طومان باى على عرب هوارة ، وعرب عزاله (٣) ، وأصبح طومان باى هو المتحكم فى كل شىء ، فلم يكن بمصر فى ذلك الوقت من هو أكبر من الأمير طومان باى .

بدأ طومان باى يمهد لنفسه للوصول الى العرش ، فعندما توفى الأتابكى أزبك من ططخ (٤) ، أمر السلطان قانصوه بحركة تنقلات بين كبار الأمراء ، وكان لطومان باى الدور الاكبر فى ترتيب هذه الحركة فتعين جان بلاط أتابكا ، وقصروه نائبا بدمشق ، ودولات باى من أركماس ـ أخو طومان باى ـ نائبا بحلب (٥) .

وحتى يمهد طومان باى لنفسه للوصول الى العرش ، انتهز فرصة تمرد قصروه نائب الشام ، وتواطأ معه طومان باى ضد السلطان ، ولذلك انتشرت الاشاعات فى مصر بأن السلطان سوف يقبض على طومان باى ، ولكن السلطان قانصوه كان أضعف من أن يقضى على طومان باى ، ولذلك

---

(١) نفسه ص ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ابن طولون : مفاكهة الخلان جـ ١ ص ٢٠٥ .

(٢) كانت ترقية طومان باى فى نفس يوم تولى قانصوه السلطنة فى ١٧ ربيع الاول ٩٠٤هـ ـ انظر ابن اياس : مصدر سابق جـ٣ ص٤٠٥ ، ٤٠٧ ، ابن طولون : مفاكهة الخلان جـ ١ ص ٢٠٥ .

(٣) ابن اياس : مصدر سابق جـ ٣ صفحات ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١٥ ، ٤١٦ .

(٤) توفى فى رمضان ٩٠٤ هـ/مايو ١٤٩٩ م ـ ابن اياس : مصدر سابق جـ ٣ ص ٤١١ وما بعدها ، السخاوى : مصدر سابق جـ ٢ ص ٢٧٠ ترجمة رقم ٨٤٤ .

(٥) ابن طولون : اعلام الدرى ص ٩١ ، مفاكهة الخلان جـ ١ ص ٢٠٥ .

خلع السلطان على طومان باى وأمره بالتوجه الى الوجه القبلى لمحاربة العربان، ومع ذلك استمرت هذه الاشاعات التى تعكس حقيقة الوضع بين السلطان وطومان باى ، واضطر السلطان أن يأمر بالمناداة فى القاهرة « أن أحدا لا يكثر كلاما فيما لا يعنيه ، وأن الأمير طومان باى الدوادار على عادته » ، ويعلق ابن اياس على ذلك الأمر بقوله : « وقد تأكد الأمر بذلك » (١) ٠

وعندما عاد طومان باى من الصعيد مكث فى الجيزة ، ولم يعبر النيل ، فتوجه اليه الأمير طراباى ومعه صورة يمين على لسان السلطان « أن لا يشوش عليه اذا قابله ولا يقبض عليه » ، فلم يثق طومان باى بهذا الحلف وأظهر العصيان ٠ (٢)

كان اظهار عصيان طومان باى معناه نهاية السلطان قانصوه ، فبعد أيام قليلة عبر طومان باى النيل بمن معه من القوات ، وتوجه الى الأزبكية حيث منزل الأتابكى جان بلاط ، وتم الاتفاق على خلع قانصوه ٠ (٣)

لم يجسر طومان باى أن يتسلطن ، وشريكه فى الانقلاب والحصار جان بلاط موجودا ، ورشح بعض الأمراء للسلطنة قانى بك ٠ ورشح آخرون جان بلاط ، فلم يرض العسكر بأيهما ، وهنا نجد ان طومان باى السلطنة فى ذى الحجة ٩٠٥ هـ / يولية ١٥٠٠ م (٤) ، وهذا هو ثانى سلطان يجلسه طومان باى على العرش ٠

خلع السلطان جان بلاط على الأمير طومان باى ، وقرره فى أمرة السلاح ، مضافا الى ما بيده من الدوادارية الكبرى ، كما قرره أيضا فى الوزارة والاستادارية وكشوفية الكشاف « فعظم أمره جدا وصار صاحب الحل والعقد » ، و « تصرف فى أحوال المملكة كما يختار ، وصار الأشرف جان بلاط معه كالمحجور عليه لا يقضى أمرا دونه » (٥) ٠

ظل قصروه نائب الشام على عصيانه ، ولم يعترف بسلطنة جان بلاط ولم يقبل أن ينتقل من نيابة الشام الى منصب الأتابكية فى مصر (٦) ٠

---

(١) ابن اياس : مصدر سابق جـ ٣ ص ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ابن طولون : أعلام الدرى ص ١٠٦ ٠

(٢) ابن اياس : مصدر سابق جـ ٣ ص ٤٣٥ ٠

(٣) نفسه جـ ٣ ص ٤٣٥ ٠

(٤) ابن اياس : مصدر سابق جـ ٣ ص ٤٣٩ ، الغزى : مصدر سابق جـ ١ ص ١٧١ ، ابن طولون : مفاكهة الخلان جـ ١ ص ٢٢٩

(٥) ابن اياس : مصدر سابق جـ ٣ ص ٤٤٥ ، ٤٤٧ ٠

(٦) ابن طولون : أعلام الدرى ص ١١٦ ، مفاكهة الخلان جـ ١ ص ٢٢٩ ٠

وكان عصيان قصروه هو المشكلة الرئيسية التى واجهت السلطان جان بلاط ، والتى استغلها طومان باى للوثوب الى عرش السلطنة ، فقد ظل طومان باى على تواطئه مع قصروه نائب الشام ٠

بدأ طومان باى يدبر لأمر سلطنته ، فأشار على جان بلاط أن يرسل تمرباى ــ دوادار طومان باى ــ الى قصروه من أجل الصلح بينهما ، كما اظهر دولات باى نائب حلب ــ أخو طومان باى ــ الطاعة لجان بلاط ، وأنه ليس مع قصروه ، و « كان هذا كله حيل وخداع ، وترتيب من الامير طومان باى » (١) ٠

ثم تم الاتفاق بين جان بلاط وطومان باى على ارسال قوة عسكرية للقضاء على تمرد قصروه ٠ وكان على رأس هذه القوة طومان باى نفسه ، وخرج معه كل من قانصوه الغورى ، وأنصباى ، وغيرهما من الأمراء (٢) ٠

ويبدو أن تمرباى ــ دوادار طومان باى ــ قد مهد لسيده عند قصروه فلم يكد يصل طومان باى الى دمشق حتى تم الاتفاق بين كبار الامراء على خلع جان بلاط وسلطنة طومان باى ، وتمت مبايعة طومان بالسلطنة وتلقب بالملك العادل أبو النصر ، وبدأ طومان باى يوزع المناصب الكبرى على الأمراء الذين تحالفوا معه ، فعين قصروه فى منصب الأتابكية بمصر ، وعين أخاه دولات باى فى نيابة الشام ، وقرر قانصـــوه الغورى فى الدوادارية الكبرى والوزارة والاستادارية وكشف الكشاف عوضا عـن نفسه ، كما وزع باقى المناصب على الأمراء ٠ (٣)

عاد طومان باى الى القاهرة على رأس قواته ، ونجح فى القبض على الأشرف جان بلاط (٤) ، فاعتقل بالقلعة حوالى ثمانية عشر يوما الى يوم الاثنين خامس رجب ٩٠٦هـ/٢٥ يناير ١٥٠١م حيث توجهوا به الى ثغر

---

(١) ابن اياس : مصدر سابق جـ ٣ ص ٤٤٨ ٠

(٢) ابن اياس : مصدر سابق جـ ٣ ص ٤٤٩ ، ٤٥١ ، ابن طولون : أعلام الورى ص ١٢١ ، الغزى : مصدر سابق جـ ١ ص ٢٩٥ ٠

(٣) ابن اياس : مصدر سابق جـ ٣ ص ٤٥٣ ، ابن طولون : أعلام الورى ص ١٢٥ ومابعدها ٠

(٤) تم القبض عليه فى ١٨ جمادى الآخرة ٩٠٦ هـ/٧ يناير ١٥٠١ م ــ ابن اياس : مصدر سابق جـ ٣ ص ٤٦١ ، ٤٦٢ ، السخاوى : مصدر سابق جـ ٣ ص ٦٢ ، ٦٣ ترجمة رقم ٢٥٣ ، ابن العماد : مصدر سابق جـ ٨ ص ٢٨ ، الغزى : مصدر سابق جـ ١ ص ١٧١ ٠

الاسكندرية ، وكان « المتسفر عليه » الأمير أنصباى من مصطفى (١) ، وبعد فترة قصيرة أرسل طومان باى مرسومه سرا الى نائب الاسكندرية بقتل جان بلاط ، فورد الخبر الى القاهرة فى ٤ شعبان بقتل الأشرف جان بلاط (٢) ، أى بعد حوالى شهر واحد من تاريخ نقله الى الاسكندرية ٠

واذا كان العادل طومان باى قد تخلص من الأتابك قصروه الذى سانده حتى ولى العرش (٣) ، فانه كافأ من عاونه فى الوصول الى العرش وبخاصة قانصوه الغورى ، وأنصباى من مصطفى ، وقد رأينا أنه عين قانصوه الغورى فى مناصبه ، أما أنصباى فظل بلا وظيفة ، ولكنه أخذ نصيبه من الغنيمة فى التصرف مع الغورى فى أملاك جان بلاط ، وذلك حسبما تكشف عنه الوثيقة موضوع الدراسة ٠

كانت هذه هى الخلفية التاريخية لموضوع « التفويض » الصادر فى ١٢ رجب ٩٠٦هـ/أول فبراير ١٥٠١م من الأشرف جان بلاط ، أى بعد القبض عليه ، وبعد تسفيره الى الاسكندرية معتقلا بسبعة أيام ، وكان المتسفر عليه هو أنصباى من مصطفى ، ويدل هذا بوضوح على أن جان بلاط أجبر ، أو أنه أشهد عليه زورا بهذا التفويض الذى جعل بمقتضاه الحق لكل من قانصوه الغورى وأنصباى التصرف فى كل ما يملك أو ما يظهر من أملاك له ، وبعد أيام قليلة من تاريخه هذا التفويض صدرت أوامر السلطان العادل بقتل طومان باى ٠

ويبدو مما ذكره ابن اياس أن العادل طومان باى كان قد قرر أموالا على جان بلاط ، وأن جان بلاط ظل معتقلا بقلعة الجبل حتى أحضر هذه الأموال ، ثم نقل الى الاسكندرية ، وقد يكون فى هذا ما يفسر ما جاء بالوثيقة سطر ١٧ « وفوض لهما فى ذلك أتم تفويض بالنظر الشريف السلطانى العادلى » ، كما يفسر ما جاء بافتتاحية الوثيقة ٠

---

(١) ابن اياس : مصدر سابق جـ ٣ ص ٤٦٢ ، ٤٦٩ ٠

(٢) نفسه جـ ٣ ص ٤٧٢ ، ويبدو أنه قتل قبل ٢٥ رجب انظـــر ابن طولون : أعلام الورى ص ١٣٦ ٠

(٣) تم القبض على قصروه وخنقه فى أوائل رجب ٩٠٦ هـ ــ ابن اياس : مصدر سابق جـ ٣ ص ٤٦٧ ، ابن طولون : أعلام الورى ص ١٣٥ ٠

فهرسة الوثيقة :

١ ـ الفهرسة الشكلية :

رقم الوثيقة : ٧٣٩ ج (جديد) ٠
مكان الوثيقة : محفوظات (دفتر خانة) وزارة الأوقاف بالقاهرة ٠
مادة الكتابة : ورق
شكل الوثيقة : ملف
شكل الدروج : واحد

أبعاد الوثيقة : ٢٩ × ٥ر٧٢ سم
حالة الوثيقة : بها آثار رطوبة ، وبها جزء ممزق يتضمن أواخر السطور من ٥ ـ ٩ ، ولكن معظم النص سليم ومكتوب على الوجه فقط ٠

٢ ـ الفهرسة الموضوعية :

موضوع التصرف : تفويض خاص
التاريخ : ١٢ رجب ٩٠٦ هـ ٠
تفويض صادر من : أبو النصر جان بلاط
الى : ١ ـ قانصوه الغورى ، أمير دوادار كبير ٠
٢ ـ السيفي أنصباى ، أحد أعيان السادة الأمراء ٠
المتصرف فيه : جميع أمور جان بلاط وتعلقاته بأسرها ٠

٣ ـ الاشهاد التوثيقى :

نوع الاسجال : حكمى
تاريخه : ١٢ رجب ٩٠٦ هـ ٠
القاضى الموثق : محمد بن جريح المالكى
علامته : الحمد لله وحده (سطر ٢٧)

٤ ـ ملاحظات :

يوجد بأول الوثيقة فى الهامش الأيمن ختم بيضاوى ، على يمين البسملة ، وهو غير مقروء ، ويبدو أنه باللغة التركية ٠

منهج التحقيق :

الوثيقة عبارة عن درج من الورق المائل الى الصفرة ، غليظ نوعا ما خشن الملمس ، وهى مكتوبة بخط ديوانى بحبر من السناج الأسود ٠

وجرى كاتب الوثيقة على ما كان سائدا فى ذلك العصر من كتابة متن الوثيقة فنلاحظ عليها :

١ ــ ترك الكاتب بياض فى الهامش الأيمن مقداره حوالى ٩ سم من أول الورق حتى بدء الكتابة ، بينما لم يترك أى بياض فى الهامش الايسر فوصلت الكتابة حتى نهاية الورق ، كما أن الكاتب لم يترك بياض فى أول الوثيقة سوى سنتيمتر واحد ، بينما نجد بياض فى نهاية الوثيقه طوله حوالى ١١سم ٠

٢ ــ لا توجد بالوثيقة أى من علامات الترقيم ، فلا نجد بين جملها نقطا أو فواصلا بين كل عبارة وأخرى ، أو بين كل موضوع والذى يليه ٠

٣ ــ الكاتب يصل حروف الكلمة الواحدة التى ليس من شأنها أن توصل ، وكذلك الكلمتين أو الثلاث ٠

٤ ــ حرص الكاتب على أن يضع حروف الشكل على بعض الكلمات مثل أسند (سطر ٧) ، ولكنه لم يلتزم بذلك ٠

٥ ــ حذف الكاتب الهمزة وبخاصة فى أخر الكلمات مثل « الفقها والعلما » ٠

وقد راعيت فى نشر الوثيقة المحافظة على أصل النص محافظة تامة وأبقيت عليه كما هو بحروفه وألفاظه وأخطائه دون تصحيح أو تعديل فى النص نفسه ، ليدل على أسلوب ولغة العصر ٠ ولم أضف الى النص سوى وضع نقط لبعض الحروف ، أو الهمزات ، والفواصل بين الجمل حتى يسهل على القارىء الحديث متابعة النص ، وجعلت كل سطر فى الوثيقة سطرا مستقلا ، وأعطيت له رقما مسلسلا حسب ترتيبه فى متن الوثيقة ٠

بسم الله الرحمن الرحيم

منظر مولانا المقام الشريف ذو الامانة والتشريف لـ ذات الاعظم الملك المنزل المعتنى

المرابط المنصور المؤيد صاحب الراي السديد والنصر المؤيد المعالم العالم صاحب الشان الجميل

والفضل الكامل كهف المتقين والعلماء والصالحين ملاذ الامة ابو المعالي وارث الملك سيد

العرب والعجم والترك ملك البرين والبحرين خادم الحرمين

طوبان باي خلد الله ملكه وجعل سائر الاقطار ملكه ونصر نصراته

وايده بتأييده أمضى مولانا المقام المعالي المؤيدي

ابو النصر خان بلاط لعن الله نور عافيته وبلغه ترجيته

نص الوثيقة :

١ ــ بسم الله الرحمن الرحيم (١)

٢ ــ ينظر مولانا المقام الشريف ذو الأمانة والتشريف الـ٠٠٠٠(٢) الامام الأعظم المالك الملك المعظم

٣ ــ المرابط المنصور المؤيد صاحب الرأى السديد والنصر المؤيد العالم العامل صاحب الثناء الجميل

٤ ــ والفضل الشامل كهف الفقهاء والعلماء والصالحين ، مـــلاذ الفقراء والمساكين ، وارث الملك ، سيد ملوك (٣)

٥ ــ العرب والعجم والترك ، ملك البرين والبحـــرين خـــادم الحرمين ٠٠٠٠ (٤)

٦ ــ طومان باى خلد الله ملكه (٥) ، وجعل سائر الأقطار ملكه ، ونصره نصرا عز (يزا) ٠٠٠

٧ ــ فى البلاد تمكينا ، أسند مولانا المقام العالى المولوى (٦) ٠٠٠٠

٨ ــ أبو النصر جان بلاط أحسن الله تعالى عاقبته ، وبلغه مـــن خيرى ٠٠٠٠

---

(١) هذه افتتاحية الوثيقة وقد وردت فى سطر مستقل، ودرج الكتاب فى العصور الوسطى على بدء الوثيقة بالبسملة ــ القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٦ ص ٢١٩ .

(٢) موضع ثقب بالوثيقة ، ولعل الكلمة الناقصـــة (السلطان) ، وهـــذا اللقب ومايليه من ألقاب السلطان العادل طومان باى ، وهى ألقاب طوال منها تفخيم وتعظيم يناسب المقام السلطانى ، فقد شملت نحو خمسة أسطر من وثيقة عدد أسطرها ٣١ سطرا . وعن الالقاب أنظر القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٦ ص ٥ ومابعـــدها ، و د. حسن الباشا : الالقاب الاسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار (القسم الثانى : معجم الالقاب) ص ١١٨ ومابعدها .

(٣) حرف الكاف ممزق فى الوثيقة .

(٤) بداية تمزيق الهامش الايسر يستمر حتى سطر ٩ .

(٥) ولى طومان باى عرش السلطنة المملوكية فى الفترة ما ١٨ جمادى الأخرة حتى ٢٩ رمضـــان ٩٠٦ هـ ، أى نحـــو مائة يوم ــ ابن اياس : بـدائع الزهور جـ ٣ ص ٤٦٥ ، ٤٧٧ .

(٦) يلاحظ قلة ألقاب جان بلاط ، ذلك أن الوثيقة كتبت أثناء احتفاله بالاسكندرية ــ قارن هذه الالقاب بما سبق من ألقاب طومان باى ، وبما يلى من ألقاب قانصوه الغورى وأنصباى .

٩ ـ العالى (١) المولوى الأميرى النبيرى العضدى الذخرى النصرى الغوثى الغياثى المقدمى الظهيرى السيدى) (٢)

١٠ ـ قانصوه الغورى أمير دوادار كبير بالديار المصرية وما مع ذلك الملكى العادلى أدام الله تأييده وأجزل له

١١ ـ من كل خير مريده ، ولمولانا (٣) المقر الأشرف الكريم العال المولوى الأميرى الكبيرى المجاهدى المرابطى السيدى

١٢ ـ السندى الهمامى المالكى المخدومى المقدمى الظهيرى السيفى أنصباى (٤) أحد أعيان السادة الأمراء (مقدمى) (٥)

١٣ ـ الألوف بالديار المصرية الملكى العادلى ، أعز الله تعالى أنصاره، وضاعف عزه واقتداره ، التكلم عنه (٦)

١٤ ـ على جميع أموره كلها ، وتعلقاته بأسرها ، قبل من كانت ، وحيث تكون بالديار المصرية وغيرها

١٥ ـ اسنادا كليا تاما عاما موسعا مفوضا مرعيا ، مجتمعين ومفترقين وفى فعل ما يريا فعله

١٦ ـ بالحظ والمصلحة والسداد له ، أقامهما فى ذلك مقام نفسه الشريفة حرسها الله تعالى ، ورضى

١٧ ـ بقولهما وفعلهما فى ذلك ، وفوض (٧) لهما فى ذلك أتم تفويض بالنظر الشريف السلطانى العادلى

---

(١) هذه بداية ألقاب قانصوه الغورى .

(٢) (سدي) موضع تمزيق بالوثيقة ، ولعلها السيدى ، أنظرى مايلى سطر ١١ .

(٣) هذه بداية ألقاب الامير انصباى من مصطفى ـ أنظر ماسبق فى الدراسة التاريخية .

(٤) هو انصب من مصطفى الذى ساند طومان باى ضد جان بلاط ، وكان قد خرج معه الى الشام ، ويبدو أن تفويضه على أملاك جان بلاط جزء من نصيبه من الغنيمة ـ أنظر ما سبق فى الدراسة التاريخية .

(٥) مقدمى : غير واضحة فى الوثيقة ، ولكنها تتفق وسياق الكلام وطبقا لمصطلحات العصر المملوكى .

(٦) هذا من قبيل الوكالة الشرعية ، وللدراسة التفصيلية أنظر الجزيرى : كتاب الفقه على المذاهب الاربعة ـ الجزء الثالث ص ١٦٧ وما بعدها .

(٧) فوض : فوض اليه الامر أى صيره له وجعله الحاكم فيه ، وفى حديث الدعاء فوضت أمرى اليك ، أى رددته اليك ، يقال فوض أمره اليه اذا رده اليه وجعله الحاكم فيه ـ ابن منظور : لسان العرب ـ مادة فوض .

١٨ ـ المنوه باسمه الشريف أعلاه ، خلد الله ملكه ، وأدام علاه ، وأشهد بذلك مولانا المقام الملك الأشرف .

١٩ ـ المشار اليه أعلاه على نفسه الشريفة أمدها الله بالخيرات المنيفة ، فشهد عليه به ، وهو بحال جواز الاشهاد بذلك عليه (١) بتاريخ

٢٠ ـ اليوم المبارك الثانى عشر شهر رجب الفرد عام ست وتسعمائة ولما تكاملت الشهادة بذلك

٢١ ـ على مولانا المقام العالى الملك الأشرف المشار اليه أعلاه ثبت اعترافه به (٢) بشهادة شهوده

٢٢ ـ لدى سيدنا العبد الفقير الى الله تعالى الشيخ الامام العالم العلامة الحجة الفهامة شمس الدين شرف العلماء وأحد الفضلاء

٢٣ ـ مفتى المسلمين ، صدر المدرسين أبى الفضل محمد بن جريج المالكى الصوفى الشاذلى عن خلفاء الحكم العزيز ومشايخ العلم

٢٤ ـ الشريف بالثغر المذكور (٣) ، أيد الله تعالى أحكامه ، وأحسن اليه ثبوتا (٤) صحيحا شرعيا تاما محررا

٢٥ ـ مرعيا مسئولا فيه مستوفيا شرائطه الشرعية (٥) وأشهد على نفسه الكريمة بذلك فشهد به عليه أيد الله تعالى

---

(١) حتى يكون التفويض قانونيا تنص الوثيقة على أن جان بلاط كان فى حال من الصحة تمكنه من التصرف بارادته ، وان لا علة به تمنع من صحة تصرفه ـ انظر السرخسى : المبسوط جـ ٢٤ ص ١٦١ .

(٢) لابد من الاقرار بمعرفة المتصرف فيما تصرف فيه حتى يكون تصرفه لازما نافذا ، ولذلك لابد من اثبات أنه يعرف ما تصرف به مما يجعل معرفته حجة عليه ويسقط حقه فى ابطال التصرف بدعوى عدم علمه .

(٣) المقصود هو ثغر الاسكندرية ، ويبدو أنه ورد ذكره فى الجزء الممزق من الوثيقة ـ أنظر ما سبق فى الدراسة التاريخية .

(٤) الثبوت = لغة حصول أمر وتحققه عن طريق معرفته حق المعرفة ، واذا حكم بثبوت البينة امتنع على قاضى آخر ابطاله ، أنظر د . عبد اللطيف ابراهيم : التوثيقات الشرعية ص ٣٨٠ وما بعدها .

(٥) المقصود بذلك الضوابط التى تجب مراعاتها فى تحرير العقود والاشهادات ، والهدف منها الاحتياط والحذر ليكون العقد جديرا بالثقة ـ د . عبد اللطيف ابراهيم : مرجع سابق ص ٣٨٥ .

٢٦ ـ أحكامه ، وأحسن اليه ، وهو نافذ القضاء والحكم ماضيهما(١) فى التاريخ المعين أعلاه ، وحسبنا الله ونعم الوكيل (٢) ٠

٢٧ ـ فيه مصلح بين أسطره على كشط أسنده صحيح ذلك معتد به فى محله (٣) والحمد لله وحده (٤) ٠

٢٨ ـ شهدت (٥) على مولانا المقام العالى	شهدت على مولانا المقام المشار اليه
٢٩ ـ المشار اليه أعلاه وعلى سيدنا الحاكم	أعلاه وعلى سيدنا الحاكم المشار
٣٠ ـ المشار اليه بما نسب لكل منهم أعلاه	المشار (٦) اليه فيه بما نسب لكل منهم أعلاه
٣١ ـ وكتبه (٧) عبد القادر بن عبد الباسط	وكتبه محمد العلائى الخطيب

---

(١) يؤكد كاتب الوثيقة أن القاضى الذي ثبت أمامه صحة التفويض كان مباشرا لعمله ليس معزولا عنه ٠

(٢) الحسبلة هى الدعاء الختامى فى وثائق العصور الوسطى ، واصطلح الكتاب على أن يكتبوا لفظ الحسبلة بصيغة الجمع باعتبار أن المتكلم يتكلم عن نفسه وعن غيره من الامة ، وتسبق الحسبلة واو زائدة فلا علاقة بين الحسبلة وما قبلها ـ القلقشندى: صبح الاعشى جـ ٦ ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠ ٠

(٣) تعقيب من كاتب الوثيقة على ما وقع منه من هنات ٠

(٤) علامة القاضى الموثق ٠

(٥) يلاحظ أن الشهادتين غير متطابقتين تماما فى ألفاظها ٠

(٦) المشار : مكررة

(٧) « وكتبه » يدل هذا اللفظ على أن الشاهد وقع بخطه بعيدا أن قام بنفسه بكتابة عبارة الشهادة بألفاظها التى أداها فى مجلس الحكم ـ القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٦ ص ٢٦٤ ٠

المصادر والمراجع

ابن اياس :

(محمد بن أحمد الحنفى ت ٩٣٠هـ/١٥٢٤ م) :

ـ بدائع الزهور فى وقائع الدهور

جـ ٣ ، ٤ ، نشر محمد مصطفى ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٩٦٠ ـ ١٩٦٣ ٠

جورج فاضلو حورانى :

ـ العرب والملاحة فى المحيط الهندى

ترجمة د٠ يعقوب بكر ـ القاهرة ١٩٥٨ ٠

جيان :

ـ وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن أفريقية الشرقية ٠

ترجمة يوسف كمال ـ الطبعة الأولى ١٩٢٧ ٠

حسن الباشا :

ـ الألقاب الاسلامية

القاهرة ١٩٥٧

السخاوى :

(محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢هـ/١٤٩٧م) :

ـ الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع

١٢ جزء ـ مصر ١٣٥٣ ـ ١٣٥٥ هـ ٠

السرخسى :

(محمد بن أبى سهل ت حوالى ٥٠٠هـ/١١٠٦م) :

ـ المبسوط

٣٠ جزء مصر ١٣٣١ هـ ٠

السيد الباز العرينى :

ـ المماليك

بيروت ١٩٦٧ ٠

ابن شاهين :

(خليل بن شاهين الظاهرى ت ٨٧٢هـ/١٤٦٨م) :

زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك

نشر بولس راويس ـ باريس ١٨٩٤م ٠

ابن طالون :

(محمد بن على بن طولون ت ٩٥٣هـ/١٥٤٦م) :

ـ اعلام الورى بمن ولى نائبا من الاتراك بدمشق الشام الكبرى ـ تحقيق عبد العظيم حامد خطاب ـ القاهرة ١٩٧٣

ـ مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان

حـ١ تحقيق محمد مصطفى ـ القاهرة ١٩٦٢

عبد الرحمن الجزيرى :

ـ كتاب الفقه على المذاهب الأربعة

حـ ٣ قسم المعاملات ـ القاهرة ١٩٧٠

عبد العظيم حامد خطاب :

ـ قانصوه الغورى ونهاية الدولة المملوكية رسالة دكتوراه غير منشورة ـ كلية الآداب ـ جامعة عين شمس ١٩٧٣ ٠

عبد اللطيف ابراهيم :

ـ التوثيقات الشرعية والاشهادات فى ظهر وثيقة الغورى

(مجلة كلية الآداب) جامعة القاهرة ـ مجلد ١٩ جـ ١ مايو ١٩٥٧، القاهرة ١٩٦٠م ٠

ابن العماد الحنبلى :

(عبد الحى بن أحمد ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م) :

شذرات الذهب فى أخبار من ذهب

١٠ أجزاء ـ القاهرة ١٣٥٠هـ ٠

القلقشندى :

(أحمد بن على ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) :

ـ صبح الأعشى فى صناعة الانشا

١٤ جزء ـ القاهرة ١٩١٩ ـ ١٩٢٢ ٠

محمد عبد العال أحمد :

ـ أضواء جديدة على ملاح فاسكو دى جاما

مجلة الدراسات الأفريقية ـ العدد الخامس ١٩٧٦ ٠

محمد محمد أمين :

ـ فهرست وثائق القاهرة

القاهرة ١٩٨١ ٠

المقريزى :

(أحمد بن على ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م) :

ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار

ط ٠ بولاق ١٢٧٠ هـ ٠

ابن منظور :

(محمد بن مكرم الانصارى ت ٧١١ هـ/١٣١١ م) :

ـ لسان العرب

٢٠ جزء ـ بولاق ١٣٠٠ ـ ١٣٠٨م ٠